العجيلي

فارس مهزوم... من "مدينة القنطرة"

بقلم أنور قصيباتي

في فترات التحول الكبرى لامة من الامم ، يكون الادباء المبدعون هم الوجدان الحي لهذه الامة ، فهم من حيث تكوينهم النفسي والتعليمي والثقافي يرون ما لا يراه الاخرون ، ويعرفون ما يجهلـه غيرهم . وشفافية نفوسهم تجعل مشاعرهم كلوحة الرادار يرتسم عليها اضعف خط يظهر في سماء الاحداث اليومية لمسيرة امتهم . فالكارثة تضرب اعصابهم حتى حدود العصاب والانتصار يخصب دواخلهم كما لا يفعله اي نوع من انواع الفرح ، والآمال تشدهم الى مستقبل وضاء يحيونه وكأنه الحاضر المعاش ، وهم وحدهم القادرون على الحدس والتنبؤ .. حتى لكأنهم المنجمون والعرافون . ان كل ما حولهم يتسرب الى اعماقهم .. الوجوه والاحاديث والاعمال والمناظر .. المجتمع في طبيعة مرحلته بكل مظاهره .. التصرفات اليومية العادية التافهة .. حتى لكـأن « الخارج » بكل ما فيه ينصب في اعماقهم .. وكأن ذواتهم تمتد الى هذا الخارج وتمتصه بتمثل وامتلاء .. بحيث تمحى الحدود المادية والمعنوية التي تقوم عادة بين الفرد والمجتمع اذ بين الذات والموضوع .. ويتشكل كل ذلك في وحدة حلولية تتأبى على التعريف.

ان الاديب المبدع لا يقدر ان يعبر الا بطريقة عفوية واضحة مباشرة ، لا يحتويها لغز او يجثم عليها تاويل . فكل ما هو صادق هو عفوي في نفس الوقت ، والتعبير العفوي هو غير نحت الصخور وارهاق العقول .. انه يرد صافيا نقيا كالوحي والينبوع .. ويخرج صافيا نقيا كالوحي والينبوع .

ان فترات التحول الكبرى لامة من الامم .. الفترات التي يكون فيها الادباء المبدعون هم وجدان الامة ، هي نفسها الفترات التي تتصف بالرقابة الشديدة على الوجدان الحي للامة ، فينتصب سد أعلى من اسوان ومن الفرات يحجز خلفه التدفق الهدار لهذا الوجدان فيتحقق بذلك ما تنبئت به الاساطير عن تكبيل المارد والقائه في الجب المظلم .. الا ان السد لا يظل متماسكا كالفولاذ والاسمنت ، انما تعتوره شقوق من هنا ومن هناك حيث تتسرب منه بعض الومضات الالقة من حين لآخر .. لكن شتان بين شلال من نور يضيء وهو يعبر عن احلك الهزائم ويضيء وهو يعبر عن احلى الآمال ، وبين ومضات خافتة ما تكاد تظهر حتى تطارد كما تطارد الفراشات بالشباك من قبل اللاهين المترفين . في هذه الحالة ليس امام الاديب المبدع – والاديب هو القاص والشاعر والمسرحي فقط – الا ان يعبر بالرموز والالغاز رغما عنه . يحطم اسلوبه ويزيف وجدانه ويمسخ افكاره ويشوه عواطفه ويشوش رؤاه .. او يصمت . والصمت هو الموت .

عبدالسلام العجيلي ، عانى – في ظني – هذه المحنة عقب انكسار الهزيمة العربية في الايام الستة من حزيران ، وهو ككل اديب مبدع بدأ عقب الانكسار بعد ان جمّع شتات نفسه يتحدث عن هذا الانكسار حديثا عفويا صادقا . وهو كقاص موهوب كان لا بد من ان ياتي هذا الحديث بشكل قصة او رواية . ان القلة النادرة من امثال العجيلي في الوطن العربي حاولت ما حاوله . بعضهم قد تسامح قليلا وغض الطرف عن زيفه وقال جملا وفقرات لا يؤمن بها ، وبعضهم الاخر قد رمز والغز فلم يفهم هو ما يريده ولا الآخرون فهموا عليه .. وهؤلاء قد استطاعوا ان يتصلوا بقرائهم لكي يثبتوا فروسيتهم امامهم .. او على الاقل لكي يبرهنوا على نسمة الحياة التي تحرك القلم بايديهم.

.. اما الصنف الاخير فهم هؤلاء الذين لا يبالون بشيء على الاطلاق، ورغم رؤيتهم للسد يتجاهلونه ورغم علمهم بان آثارهم لن تنشر ابدا لا في هذه المدينة ولا في تلك فانهم يكتبون ويعبرون ويؤلفون .. ليس الاشعار والقصص فقط .. بل يؤلفون الروايات التي هي وحدها تحمل الصلاحية للتعبير عن حدث مثل حدث هزيمة حزيران .

هؤلاء يتشوقون – ككل اديب مبدع – ان يصبوا اعماقهم في اعماق وجدانات قرائهم .. ومع ذلك فهم يكتبون باندفاع وحماس لكي يفرغوا الشحنة النفسية المحرقة التي تلهب اعماقهم . فعملية النشر ليست مهمة بالنسبة اليهم كفاية اولى .. انما المهم ان يطلقوا هذه الشحنة اولا لكي لا تقتلهم وتودي بموهبتهم التي منحوها كاعلى عطية جادت بها الطبيعة عليهم .

عبدالسلام العجيلي .. كان واحدا من هؤلاء على اختلاف اصنافهم وتعدد طرقهم ، الا انه اختط طريقا مفردا فذا لم يدانه او يشاركه فيه احد من هؤلاء جميعا الذين هم بحق نخبة هذه الامة ، المعروف منهم والمجهول . ان سياقه الخاص الامين عليه ينفره من ان يقول ما لا يؤمن ، يزيف بعض الحقائق في سبيل ان يطل على جماهير قرائه. وكذلك فان اسلوبه العفوي المباشر لا يمكن ان يتحول ، حتى ولو أراد، الى اسلوب الالغاز والرموز والطلاسم ، واذا اراد ان ينشر رؤاه عن هزيمة حزيران .. فليس امامه سوى هذين الطريقين ، التزييف او الطلاسم .. اما الطريق الثالث ، طريق الذين يكتبون ولا ينشرون لانهم لا يزيفون ولا يلغزون فهو يتجنبه مجانبة كبرى لانه من الادباء الذين يعشقون النشر والاتصال باكبر حشد ممكن من جماهير القراء. فالاثر الادبي عنده لا قيمة له الا بالتجسد في صفحة مطبوعة تمس ذوات المئات والالوف . وهو اذ يعلم سلفا بان قصة ما او رواية

يمكن ان يحال بينها وبين النشر فانه لا يقدم اصلا على كتابة حرف واحد منها ، فهو ينزع لان يكون حضوره دائما مستمرا في ذوات قرائه ، ولا بد لتحقيق ذلك من الكتابة والنشر . فالكتابة فقط لوحدها لا تهمه من قريب او بعيد ، فليست هي سوى المعبر او القنطرة التي يتجه من خلالهما نحو الآخرين ، فهو يكتب لكي يراه الاخرون .. الآن وفي الحين ولا يكتب لكي ينشر بعد سنوات وسنوات او بعد ان يرحل من الشهادة الى الغيب . فهو اذا لا يضع قشرة من الطلاء الظاهر المفتعل على الباطن الصادق ، ولا يكتب الفاظا تحمل دلالات تأويلية ظاهرها يخالف باطنها .. وكذلك فهو لن يكتب الا اذا عرف بانه سينشر ، فكيف اجتاز عبدالسلام هذه الورطة وتجاوز هذه الطرق الثلاث .. وكتب ما يريد ، ثم نشر ما كتبه بعنوان « فارس مدينة القنطرة » وانا لا اعني هنا مجموعة القصص التي ضمها الكتاب . انما حديثي كله يدور حول القصة الاولى التي حملت عنوان الكتاب ، وموضوعها هو : هزيمة حزيران .

ان حوادث « فارس مدينة القنطرة » تدور في جنوبي الاندلس في الرقعة الصغيرة التي بقيت للعرب من ذلك الفردوس المهدور ، وهذا معناه ان عبدالسلام قد اختار الشخصيات التاريخية والاحداث التاريخية والبقاع التاريخية مسرحا لافكاره وتجسيد رؤاه ، وهذا معناه الكتابة باسلوب رمزي ، وقد ذكرت بانه من الادباء الذين لا يستعملون الرمز وانه لم يستعمل الرمز عندما اراد ان يتحدث عن انكسار الهزيمة العربية في حزيران .

بعض الادباء اتخذوا الاطار التاريخي وسيلة للتعبير ابان تصويرهم للهزيمة ، او لمجتمع الهزيمة ، وقد قرات مؤخرا مسرحية تصور مجتمع الهزيمة ضمن اطار تاريخي (١) .. الا انني لم اتمثل البيئة التاريخية على الاطلاق ، فكنت اتخيل الاشخاص فقط يرتدون الملابس التاريخية اما حوارهم فكان يحمل الهموم السياسية اليومية التي نحياها في كل مدينة عربية ، ولم اجد اي ارتباط بين الاحداث التاريخية موضوع المسرحية وبين الاحداث التي تصرعنا صبح مساء. فالحدث التاريخي كان ميتا بالمرة ، اما الحدث الحي فكان الحدث المعاصر ، مع العلم بان المؤلف اختار فترة الهزال العباسي ، عندما كان الخصيان والعبيد والمماليك يقبضون ، بقوة السلاح ، على خناق الامة . ويحولون كل ثراء في الارض والانسان الى جدب وقحط ونضوب . اما عبدالسلام فعندما اختار الاطار التاريخي ، فانه تحدث عنه كتاريخ تماما . لقد تمثلت الارض الاندلسية الضيقة ،والشخصيات الاندلسية التي تصارع الهزيمة ، وكنت ارى الاحداث الاندلسية لا وقائع حرب حزيران ، والهزيمة تسحق بقايا عرب الاندلس لا جموع عرب اليوم . ومع ذلك فهذه القصة هي ابعد ما تكون عن كونها جزءا من تاريخ ، او قصة تاريخية .. وهنا يبدو التفوق عند صانعها .

ان صدمة هزيمة حزيران عند ممثلي الوجدان الحي للامة فعلت بهم كل ما يخطر ببال ، وردت البعض الى الهروب من واقع وبيئة لم يعد بالامكان عيشهما .. الى واقع وبيئة من الممكن الحياة فيهما . وهذا الهروب هو هروب خيالي تصوري وليس هروبا جسميا حركيا. البعض هرب الى فيتنام او الصين او شارك في عصابات شعوب اميركا اللاتينية . والبعض الاخر هرب الى التاريخ الغربي . والهروب قد يكون سلبيا وقد يكون ايجابيا ، فعند تمثل واجترار فترة الفتوحات العربية او فترة الحروب الصليبية في عهد صلاح الدين ، يكون الهروب سلبيا .. اما عندما يكون الهروب الى فترات الضعف والهزال والكوارث التي عانت منها هذه الامة الشيء الكثير .. فان الهروب هنا يكون ايجابيا . واذا كان عبدالسلام قد اختار اواخر فترة انحسار العرب عن اسبانيا . فمعنى ذلك انه قد هرب لهناك ، وان هروبه ايجابي للتشابه البديهي بين هزائم العرب في اسبانيا وبين هزيمتهم في حزيران .. الا ان سياق قصته لا يدل على ذلك . كما سنرى من خلال تحليلها .

ان الغربة الروحية قريبة الشبه من الهروب .. الا ان الغربة روحيا الى بلاد اخرى او الى حضارة اخرى وتمثل ادبها وتاريخها وتقاليدها وقيمها تتوخى الصحة النفسية ، عندما تبدأ الذات بالشحوب والنضوب بفعل مزاجي بيولوجي .. او بفعل بيئي اجتماعي .. والذات المستغربة انما تتوخى الفرح والازدهار .. وتسعى وراء الصور والالوان والجمال والرؤى .. وهذه الامور كلها تحققها البيئة الاندلسية تمام التحقق .. فهل يمكننا القول بان عبدالسلام وقد احاقت به ظلمات الهزيمة ،كما احاقت بكل نفس عربية واعية ، قد اراد التخلص من موجات الظلمة المتعاقبة لكي يستنشق الهواء والنور من الهضاب والسهول الاندلسية البهية الالوان ؟! قد يكون ذلك صحيحا لو ان قصة « فارس مدينة القنطرة » ..كانت حكاية تقص اخبار فتاة اندلسية جميلة متيم بها فارس او شاعر في جو مرهف انيق ضمن الاطار البديع للطبيعة الاندلسية الرائعة . فكاتب القصة اذا لم يهرب الى مجتمعات معاصرة .. ولا الى فترات تاريخية محددة من عمر امته .. وكذلك لم يقم بعملية استغراب روحي الى انماط حضارية تتفاوت مكانا وزمانا وكما وكيفا ، تفجر ينابيع الخصب والعطاء وتعطي الالق والنشوة والعذر اللذيذ .

اذا كيف يمكننا تفسير ظاهرة ابداع هذه القصة ؟!

ان المريض النفسي المصاب « بعصاب الصدمة » يدفعه مرضه من اعماق اللاشعور لكي يستعيد تجربة الحادثة التي سببت له الصدمة واورثته هذا المرض .. فياخذ بعيشها مرة تلو اخرى ، ويكررها في احلام النوم حيث يهب مذعورا صائحا في البرهة التي يقترب فيها من جزئية الحدث الذي سبب الصدمة . والتحليل النفسي يرجع السبب في ذلك الى ان المريض في تكراره لتجربة الصدمة .. يريد عندما يصل الى النقطة المباشرة للصدمة ان يتجنبها وينجو منها .. لكن بطبيعة الحال فان تكرار الحادثة في احلام النوم لا تفسح المجال للمريض لكي يعدل من موقفه ويتجنب صدمة قد حدثت بالفعل واحدثت في منظمته النفسية صدعا ليس له راب .. وامكانية الشفاء لمثل هذا المريض تتم عندما يتعرض لحادثة حقيقية تكون مشابهة للحادثة الاولى التي سببت له العصاب الاليم !!.. ومن جهة اخرى فان حدوث القلق قبل التعرض للصدمة ينجي من الاصابة بالعصاب ، اي ان توقع الصدمة وترقبها والتوتر الذي يصاحب حالة التوقع يجعل وقع الصدمة خفيفا غير مؤذ . والمريض عندما يعيد تمثيل وقائع الصدمة في احلامه فانه يستهدف ايجاد حالة من القلق والتوقع والتاهب النفسي .. تلك الحالة التي لم تكن موجودة ابان وقوع الصدمة الفعلي التي سببت العصاب الاليم ، فكان المريض يريد ان يعود الى زمن ما قبل الصدمة لكي يتجنبها وينجو من عذاب آثارها .

ان العمليات الآنفة المتعلقة بآلية عصاب الصدمة هي التي تعطينا مفتاح التفسير لفارس مدينة القنطرة . فالكاتب ، ككل انسان عربي حقيقي عاش تجربة الايام الستة من حزيران بكل قدراته النفسية والعقلية والروحية ، وحالة القلق والترقب كانت معدومة تماما في الايام التي سبقت هزيمة حزيران ، واذا كان ثمة ترقب فهو عكس المقصود، لانه كان ترقب الانتصار والفخار الذي يزيل من امام النفس جميع المواقع الدفاعية التي تقف في وجه الصدمة عندما تحدث . وفي هذه الحالة تقف النفس شفافة عريانة وقد تجردت من درعها الواقي بحيث تكفي اقل هزة لكي تخرقها وتجعل الشقوق تعتورها .. فكيف يكون الامر اذا كانت هذه الهزة في مستوى هزيمة حزيران الماحقة .

ان هزيمة حزيران تحمل كل الشروط والصفات العلمية لدرجة

---

(١) مسرحية رأس المملوك جابر

المثل الآليـة الصدمة .. وكذلك انسانها يحمل كل الشروط والصفات العلميـة لآليـة عصابهـا .. وكاتب قصتنـا هو شخص مصاب بعصاب الصدمة . ويجب ان لا ننسى بان هذا العصاب لـه صـلات وثيقـة بالحروب وان اكتشافه المبدئي كـان في وسط المحاربين العائدين مـن جبهات القتال ، وان اخر حلقاته تتصل بغريزة الموت .

وهذا العصاب يشتد عند الذيـن يعايشـون الهزيمـة وهم في بعد عـن القتال ، اكثر ممـا يشتد عند الذين يجابهونها في جبهـات القتال ، كمـا هـو الشأن عنـد الغالبيـة العظمى من العرب الحقيقيين ابان حرب حزيران ، لان الذي يعايش الهزيمة ولا ارادة لـه في صنعها او محاولة درئها ، فليس امامـه سوى طاقاتـه النفسية يحرقهـا لدرجـة التلف .

ان كاتبنا لم يشهد وقائع حرب حزيران على الجبهات العربية ، انمـا عاشهـا بكل طاقاته . وكانت الهزيمة صدمة خلفت عنده ـ كمـا عند غيره ـ عصابها الاليم . وطالما انه لم يشهدها شهـودا ماديـا حسيا فهـو لا يمكـن ان يخضع لآليتها التقليدية ويعيد تمثيل الحادثة بالحلم . ان شهودهـا النفسي الفكري قـد دفعه لان يعيـد تمثيـل الحادثة تمثيلا نفسيا فكريا .. فكانت فارس مدينة القنطرة ، هي ثمرة غيـر مباشرة لآليـة عصاب الصدمة . فقصة فارس مدينة القنطرة تؤدي نفس الوظيفة التي يؤديها الحلم الجزع في ظلمـات النـوم والليـل والمرض والاعمـاق بالنسبة للمريض المعذب .

فنحـن هنا مع القصـة امـام تكرار لحرب حزيران ، لحادثـة الهزيمة ، لاسباب عصاب الصدمة . والكاتب انمـا يعيد صياغة الحادثة كلها ، يعيـد تمثيل الحرب من ارهاصاتها الاولـى الى يومهـا الاخير . والهدف الاساسي عند الكاتب ، في اعادة تمثيل الحادثـة ، هو هدف نفسي شخصي مباشر وغير شعوري ، وهـو خلق حالة من القلـق والتوتر والترقب .. في محاولة لدرء الصدمة .. وبالتالي بناء درع واحد يلف النفس ويحول بينهـا وبين المثيرات الحادة للصدمة من ان تتسرب الى اعماق النفس وتشتتها . اي محاولة للشفاء مـن آثار صدمة الهزيمة . فكيف تأتى للعجيلي أن ينصب المسرح الكامل المهيء لحرب حزيران وان يعيد في نفس الوقت مسرحية الهزيمة من بدايتهـا حتى يومها الاخير ، في بضع عشرة صفحة فقط ؟! فـي الرد علـى هـذا السؤال يجب ان نضع نصب اعيننا بـان الكاتب لم يكتب قصته الا بدافع من مرضه النفسي ، مرض عصاب الصدمة ، وان اللاشعـور الدفين هو الذي تجلى من خلال احداث القصة ، وليس الوعي الارادي الذي يجسـد مـا يتصوره .

يبدأ العجيلي قصته بخبر شخصي لا يهم غيره فيقول « فـي عـام ١٩٥٤ نشرت لي دار المعارف بمصر كتابي حكايات من الرحلات » ففـي هذه الفقرة الصغيرة ضمـن اربع حقائق لا يرقى اليها الشك ، اولا كتابه المعروف « حكايات من الرحلات » ثانيـا العام الذي نشر بـه ، ثالثا البلد الذي طبع فيه ، رابعـا دار النشر التي اصدرته . فهـو منذ الوهلـة الاولـى يريـد ان يقنع القارىء بان كل ما سيقوله هـو حقيقي وواقعي وصحيح ، وانه قد حدث بالفعل ، وان الاحـداث والاشخاص لا يمكـن ان يرقى اي شك حول وجودهم .. وهو بذلـك يريـد ان يؤكـد بان الاحكام التي ستصدر من خلال الحوار والشخصيات والاحداث .. هي احكام صادقة ونهائية . وفي هذا الكتاب الذي نشر عام ١٩٥٤ يورد قصـة عائلـة اسبانيـة تعرف عليهـا فـي القطار ، وتبادل مع افرادهـا الطعام والهدايا . ويعده رب العائلـة ان يرسل له مجلدا قديمـا عثر عليه في احد صناديق البيت المهملـة لطالمـا انـه ينتمي للغـة التي كتب فيهـا هذا المجلد . وبعد بضع سنوات يعهـد بهذه المخطوطـة التي لـم يستطع فك حروفهـا المغربيـة الى صديقـه المختص في علم المخطوطات .. وتمر سنوات اخرى قبل ان يرسل لـه صديقه العالم المخطوطـة وقـد كتبت بخط واضح مقروء . وهنا يتمكـن كاتبنا مـن قراءة المخطوطـة ويحدثنا عـن فحواها . فهي مليئة بالاحداث التاريخيـة التي رويت باسلوب قصصي عفوي كمـا حدثت تمامـا . ويختار الكاتب قصـة مـن هذه القصص ويعرضهـا علينـا بعـد ان يشذب مـا نفـر منهـا لكـي تتلاءم مـع اذواقنـا المعـاصرة التي تفصلها عـن ذوق راويهـا الاول ثمانية قرون . وقد أعطى اسم « فارس مدينة القنطرة » لهذه القصة التي لـم يعرف شيئا عـن راويهـا سوى اسمه ، النعمـان ابو وائل ، الذي تبددت شخصيته من خلال مخطوطته على انه فارس محارب وشاعـر مـن هؤلاء النادريـن الذيـن يظهرون عادة في اعقاب سقوط الحضارات وانهيار الدول ، مجردين كل ما يملكون من مواهب وشهامة وشجاعة في محاولة فاشلـة لوقف السقوط والتدهور . وهذا الفارس المحارب ينتمي الى مدينـة القنطرة . ويحكي لنـا العجيلي بانه سأل اساتذة التاريخ الاندلسي عـن موقع هذه المدينة ، فاخبروه بان الاندلس كانت تحوي عددا من المدن والقرى كلهـا تحمل اسم مدينة القنطرة ، وان اشهرها تلـك التي تقـع على نهـر التاج قرب الحدود البرتغاليـة والتي لم تزل تتألق الى اليوم على سطح كل خارطة لشبه الجزيرة الاندلسية ، الا ان سياق الحكاية في المخطوطـة يـدل على ان المدينـة المقصودة تقع في جنوبي الاندلس ، لان احداثهـا ، كمـا يرويهـا النعمـان ابو وائل وكمـا دل اجتهـاد المؤلف قد حدثت « بعـد سقوط اشبيلية وغرناطـة وتراجع العرب الـى مناطق الساحل الجنوبي تراجعـا مؤذنا بضياع ذلك الفردوس مـن ايديهم » .لقـد روى النعمـان ابو وائل قصته بشكل يوميـات . فكـان يؤرخ اليوم ويكتب احداثه الا انه سهى عـن ذكر السنـة وهـو يبدأ كمـا يلـي :

« خمسة عشر خلت من صفر وهو يوم اربعاء » .

وفيه لقينا ابن مرداد ابو بكر واخبرنـا انه قادم الساعـة مـن بنسية وانه رأى عساكر تودر تجمع جموعها وتحتشد ببارقهـا قـال المهلهل لا حول ولا قوة الا بالله ابن ساعر الفاسق في الجزيرة وتـوذر يجيّش على المسلمين قال ابو بكر ومـا يقعدك عـن الجهاد في سبيـل الله يا ابـن سلاّم هل يحول بغضك لابن ساعـر دون ان تحمل سيفـك وتركب فرسك وتذب عـن دينك ودارك فالتفت اليّ المهلهل وقال يانعمان ان ابن ساعـر فاسق لا يصح لـه جهاد لو اخلص النيـة فكيف وانـا على مثل اليقيـن من انه لا يخلص النيـة بل يريـد ان يذبحنا لتخلص لـه البلـد .. » .

من خلال هذا المقطع نجد بان العجيلي قد حافظ على اسلوب الراوي وابقى الفاظه كمـا وردت في المخطوطـة حتى انه لم يشأ ان يتدخـل ويضع الفواصل والنقاط ، فجاء الحديث متصلا ضمـن سياق واحد وكأنه كله عبارة عـن جملة واحدة ، ونحـن نعرف بان محققي التراث الذيـن يهيئـون المخطوطات للطبع يهتمـون اهتمامـا شديدا بالفواصل والنقاط ، وقد اهمل عبدالسلام هذه النقطـة تأكيـدا منه على صحـة الاحداث وتطرفـا في المحافظـة على روح النص ، ويخيل الينـا بـان النص المحقق قد وصله من صديقه عالم المخطوطـات موضحا بالنقاط والفواصل والعلامات .. الا انه آثر الغاء ذلك محافظـة منه علـى الامانـة التامـة .

ومن هـذا المقطع بالذات نستطيع ان نمسك بالخيط الرئيسـي للقصـة ونتنبأ باحداثهـا ونستشرف سياقها الخاص . فهذا الفارس الشاعـر النعمـان ابو وائل مدوّن هـذه المذكرات ، يسمع وهـو بصحبة اميره وصديقه المهلهل ابن سلام بان الاسبان يحشدون قواتهـم لمنازلة المسلميـن ، بينمـا ابن ساعـر يرتاح في الجزيرة ولا يحـرك ساكنـا ، وكـأن اصدقاء المهلهل يفهمـون بانه هـو الاخـر قاعـد عن الجهاد بسبب بغضه الشديـد لابن ساعـر . وكيف لا يبغضه وهـو

على حد تعبيره فاسق وخائن يتمنى ان يذبحوا جميعا بيد العدو ليصبح السيد الاوحد للبلد ولو تحت حماية ونفوذ الاعداء .

فنحن هنا امام ثلاث شخصيات ، شاعرنا البطل النعمان ابو وائل ، والمهلهل ابن سلام الامير العربي الغيور على دينه وقومه ووطنه ، وابن ساعر الفاسق المتهم بممالئة الاعداء والقعود دون حربهم مع انه يملك القدرة على ذلك .

فمن هو ابن ساعر ؟!

الملاحظة الاولى ان الاسم غريب يتنافر مع الاسماء العربية الاندلسية المعروفة ، فهو زعيم لجماعة تطفو على السطح عادة ابان فترات انحلال الحضارات وسقوط الدول وتلعب دورها المعين في هذا السبيل . وهذا الزعيم يملك الحشود والجنود . وجنوده هم من زنجالة الجبل ، وواضح ان زنجالة الجبل هم فئة او عشيرة من الفئات التي يتشكل منها الشعب الاندلسي ، قد يكونون من البربر وقد يكونون من متسلمة الاسبان ، وان هذه الفئة استطاعت ، في هذه المرحلة ان تصل الى مركز القوة والنفوذ . والمهلهل يقول عنهم « انهم عبيد بطونهم من ملأها ركضوا وراءه ولا احسب توذر الا عرفهم قواعد رؤساءهم المواعيد » وانهم « ابن ساعر هو وجنده يفسقون ويرمون الناس بالفسوق كانه لا يدري ان تلك التي كنت اتعشقها اصبحت زوجة لواحد من اكابر قواده وموضع سره ، انها سيبيلية كانت قينة قينة في رياض شنيل وهي اليوم زوجة ابن عمرون قلت وان ابن عمرون مضريّ قال وانه مضري ولكنه صنيعة لابن ساعر امره على كتائب من زنجالة يحسب نفسه اميرها وهو اسيرها قلت هؤلاء الزرق العيون الحمر الوجوه من زنجالة كانهم وجند توذر من طينة واحدة قال لعلك لم تعد الحق » .

ان ابن ساعر وجنده يفسقون ويرمون غيرهم بالفسوق ، ويميلون الى ممالئة الاعداء ويتهمون غيرهم بالقعود عن القتال . فهم من النوع الذي يقول ضد ما يفعل . انهم يدعون الوطنية والشجاعة وسحق الاعداء ، بينما جميع تصرفاتهم تدل على عكس ما يقولون ويذيعون . وهذا يذكر بقول اوسكار وايلد « ان الجبان لا يتحدث الا عن الشجاعة والعاهرة لا تتحدث الا عن الشرف » فاحد كبار قوادهم وموضع سر اميرهم قد تزوج من امرأة هي في الاصل عشيقة للمهلهل ايام طيش الشبان . وهذا القائد مضري اصيل من ناحية الدم ، وفي حقيقته عبارة عن العوبة بيد زنجالة الجبل قد آثروه على قواتهم وهو اسير في ايديهم ، ان شاؤوا سجنوه ، وان رغبوا طردوه ، ومتى ارادوا اقالته فعلوا .

هذه هي المقدمات التي يدونها كاتب المذكرات ويضعها تحت اعين كل ذي بصيرة حادة لكي يكون بامكانه ان يتنبا بنتائجها . فهذه الفئة المتسلطة المعزولة عن الاكثرية هي التي ستجر الهزيمة على البلاد . وستجعل من جنود الاسبان سيلا هادرا يدفع ببقايا عرب الاندلس الى البر الافريقي .

لقد بدا الكاتب يمارس آلية عصاب الصدمة ، وتندفع رؤاه بضغط اللاشعور لتصنع احداث الهزيمة وتستعيد الوقائع بشكل مشوش اشبه بالحلم ، فنحن هنا امام الارهاصات الاولى للهزيمة وامام المناخ العام الذي ستنبت في اجوائه ، ان القصة من بدايتها حتى النهاية مجموعة رؤى غير متناسقة ، ومجموعة احداث غامضة، لا يوجد خيط يشدها او رابطة واضحة ترقى بها الى المستوى الفني الكلاسيكي للقصة كما يؤمن بها راويها . وكذلك الحلم ، حلم عصاب الصدمة ، يكون مجموعة من الاحداث والرؤى المنفصلة عن بعضها ، والتي تقود فيما بعد الى اللحظة المرعبة التي سببت العصاب المؤلم ، لحظة الهزيمة والانكسار .. ومن ثم المرض النفسي العصيّ على الشفاء . وتتابع احداث الحلم لتقفز الى الحرب دفعة واحدة منذ البداية وكان المؤلف يستعجل هذه الحادثة قبل اوانها في محاولة لبناء درع معنوي من الخدر والتوقعات يحميه من الكارثة التي لوت اعصابه وخرشت منظمته النفسية الشعورية .. علّه ينجو في الحلم ـ الكتابة ـ من الصدمة ، وبالتالي من مضاعفاتها المرضية الحادة .

من المفروض لدى كاتب يؤمن بالسياق التقليدي المتين للقصة ان يسهب في رسم الجو الذي سبب وسبق الهزيمة ، وفي اعطاء المقدمات الوافية التي يمكن من خلالها التنبؤ بالنتائج .. الا ان المؤلف ألمح الى ذلك ثم اجتازه دفعة واحدة ليصل بنا الى الجبهة فجاة ويرسم لنا استراتيجية الحرب كما يراها من خلال حلمه العصابي . فنجد « أن كل عساكر ابن ساعر تحشدت في مضيق بنسية وتركت السهل يمكن لمقاتلة توذر ان تندفع فيه » وبعد ذلك مباشرة يضيف المؤلف عنصرا جديدا لعملية حشد الجيوش ضد العدو الاسباني . فالسهل الذي ترك بلا حماية يندفع المهلهل وجنوده من المضرية ليكونوا حاميته « ما دام ابن ساعر لم يبعث الينا يستعيننا كانه مستغن بجنده من زنجالة الجبل عنا نحن ابناء الجزيرة من المضريين » وهنا نجد ان المؤلف يحافظ على آلية عصاب الصدمة ويعدّل من سياق الحرب عندما يستعيدها كحلم ويدفع بالمضرية لحماية السهل لكي يقفوا في وجه الاسبان ويردوهم على اعقابهم .. ولكي لا تحدث الهزيمة .. وبالتالي لكي ينجو المؤلف من عصابها اللعون ، ولكي يدعم جبهته ـ جبهة حلمه ـ استدعى لحماية السهل « من لم يدعه ابن ساعر الى الجهاد من المضرية فانضم الينا خيالة ورجالة كثر وامتلأ السهل خياما وعدة وبهذا يكون المؤلف قد نصب درعا متينا واقيا يستطيع ان يقف وراءه بكل هدوء واطمئنان محتميا من الهزيمة ومن آثارها ومضاعفاتها .

وفي تكراره لعملية الحلم يحاول المؤلف ان ينصب سلسلة من الدروع الواقية لكي يكون بامكانها القيام بوظيفتها الدفاعية بحيث لا تتمكن اية قوة مهما بلغ سلطانها ان تخرقنا وتندفع من خلالها . فمن هذه الدروع رغبته في ان يكون اهل البلاد كلهم جيشا واحدا يرد هجمة الاعداء . وهم في هذه الحالة يكونون درعا متينا لا يقدر العدو على اختراقه وكسره والتسرب منه الى البلاد والنفوس والاعصاب « اما كان احرى بابن ساعر آن تكونوا جنده وانتم منه وهو منكم » الا ان هذه الدروع التي يقيمها المؤلف سريعا ما تتداعى الواحد تلو الاخر « فابن ساعر ما هو الا عدو لدود لهذه الامة قد جانب اولياءها وقرب اعداءها انظر اترى في جيشه قائدا مضريا غير ابن عمرون وبعض المهازيل ممن لم تكن انفسهم تسمو بهم الى اكثر من تثقيف رماح الفرسان وبيطرة خيولهم » .

والمؤلف عندما يعود محطما بعض الدروع الواقية التي اقامها فانه لا يفعل ذلك لاجل تقريب الهزيمة ، انما على الضبط يفعل ذلك لكي يبعدها ، مندفعا بذلك من حماة العصابية التي تجبره على تمتين الدروع القادرة على درء الهزيمة وعلى حمايته من مرضها العصي. فالدروع التي يهوي بها هي دروع ابن ساعر وقائده المهزال ابن عمرون لانها دروع واهية تتهاوى تحت اخف الضربات ، وتسرع في جلب الهزيمة . فهو اذا يزيحها من امامه لحمايته وحماية منظمته النفسية وحماية اعصابه لكي يقيم عوضا عنها دروعا حقيقية ولو في عالم الحلم والفكر ، وذلك عندما يقول « ان صناديد المضرية آلت ان لا تترك اسبانيا واحدا يخطو على ارض الجزيرة » فهذا العزم الذي ليس له وجود الا في اعماق الحلم هو القادر وحده على الوقوف في وجه الاسبان والاحتفاظ بالسهل والمرتفعات وكل جنوبي الاندلس ، وواضح ان هذا العزم هو الامنية التي تراود مرضى عصاب الصدمة ولسان حالهم يقول : لو حدث ذلك ، لو تحقق هذا لما كانت الصدمة ولما وجد عصابها . والحلم العصابي كله يدور عادة حول هذه الامنية في محاولة فاشلة لاقرارها واقعا .

فجاة نجد ان القتال قد استمر والاسبان قد اجتازوا المخاضة بعد اطلاق هذا العزم مباشرة ، وبعد اقامة هذه السلسلةالمتعاقبة من المواقع الدفاعية التي يستحيل اختراقها . وهذه المرحلة من مراحل الحلم العصابي هي التي تهب الراحة الموقتة للمريض حيث يعيش عدة لحظات امنا مطمئنا وكان مرضه قد زال عنه نهائيا.

فبمجرد تصور المؤلف لارادة القتال وقد انتصبت شامخة كالفولاذ واللهب يطلق المعركة من عقالها ، واثقا من النصر الاكيد .. ويجعل الاسبان يهاجمون العرب ويجتازون المخاضة .. الا ان العربيحملون عليهم حملة صادقة ويردونهم على اعقابهم كما هو متوقع تماما، وكما يحلم المؤلف .. بحيث « كانت المضرية كالطيور البواشق لا تقارب فارسا الا وتخطف روحه من بين جنبيه ولم ار في من رايت مثل المهلهل ضرابا بالسيف وقذفا بنفسه في مشتجر الرماح » .

الى هنا نجد ان المؤلف قد استوفى غايته تماما ، اقام دروعا واقية متينة ، وهدم الدروع الصورية ، واوجد ارادة القتال ، ثم اطلق المعركة . اي انه اوجد الشروط المناسبة لتغادي الاصابة بمرض عصاب الصدمة . فهو مهيىء نفسيا للقتال ، وهو واقف خلف دروع حصينة لا يمكن اختراقها وهو متسلح بعزيمة الجهاد الفطريالتلقائي .. وفي هذه الحالة لا بد ، بداهة ، من ان يكتسب النصر . ونجد ان النصر يكتسب فعلا ، ليس على يد ابن ساعر وقائده المهزال ابن عمرون وجنودهما من زنجالة الجبل ، انما يؤخذ النصر بواسطة المهلهل ورجاله من المضرية الاشاوس .

وكما ان للهزيمة عصابها وانهيارها ، فان للنصر نشوته وشموخه .. ونشوة هذا النصر تمور في خواطر ووجدان المهلهل بن سلام امير المضرية وتجري على لسانه بابيات من الشعر يهتز لها قلب المؤلف الولهان بالنصر البعيد :

ولو ابصرت عيناك يوم تذامرت
فوارسهم والخيل بالهام تعثر
وقد اقبلت صهب العثانين غدوة
كسيل على درب المنية يهدر
ندبت لهم نفسي وهمري وصارما
به من فراق الدراعين تذمر
اصاولهم فوق المخاضة مثلما ..
توثب في غيل الاسود غضنفر

فالمؤلف لم يكتف بنصر عابر يحرزه العرب ، انما اراده نصرا حاسما للوهلة الاولى من النوع الذي يلهب النشوة في الاعماق ويجعل الشعر يجري هادرا غنيفا كمسيل البراكين .. على الرغم من ان الشعر الاندلسي بعيد عادة عن مثل هذه الصفات . وفي هذه الحالة تتحول الهزيمة الى نصر واللامبالاة الى عزيمة ، والضعف الى ارادة ، والعصاب الى نشوة . ففي سلسلة المراحل التي يجتازها المؤلف ابان استعادته لتجربة الهزيمة وهو في اعماق الحلم يصل الى النصر ، ويزيل الصدمة موقتا او ينهيا لها على الاقل .. وهذا ما يهدف اليه كل مصاب بعصاب الصدمة ابان عملية التكرار للحادثة في الحلم . ويضيف المؤلف مرحلة جديدة الى مراحله ، غير معروفة في آلية عصاب الصدمة ، عندما يجتاز تجنب الهزيمة وتجنب الصدمة الى النصر نفسه ويكتسب منه النشوة المنفلتة الهادرة والتي هي على النقيض من العصاب الذي يورث الانهيار العصبي والخور النفسي ، وهو هنا يريد ، ابان حلمه ان يبتعد اكثر واكثر عن الصدمة وعصابها عندما يقلب الوضع راسا على عقب ، ويجعل منه نصرا يفجر النشوة ويهب الصحة والهناء . وهذا ان دل على شيء فعلىمدى الاصابة العميقة التي نزلت بالمؤلف وهو يشهد انكسارالهزيمة العربية ويتكسر معها .

فمن هنا نكاد نلمس النصال العنيف الذي يكابده المؤلف في سبيل اجتياز لحظة الهزيمة التي كسرت اعصابه واعصاب النخبة الواعية في الوطن العربي لكي يطل من فوقها على النصر واقفا على ركامها وهو يحدق بانتشاء بتراجع الاسبان وسيوف فرسان المضرية تقلقل جماجمهم .. ولكنه سريعا ما يتهاوى ويقع مرتطما بارضية الهزيمة . اذ ما يكاد المهلهل امير المضرية ينتهي من انشاد الابيات المشحونة فخارا ونشوة حتى يحدثنا كاتب المذكرات ـ ابو وائل النعمان ـ بانه رأى « في دار الاموي صبية عرفت من ثيوبهم انهم من صبية القنطرة فطفر الدمع الى عيني وبكيت والله رأيت في الخيام نساء وصبية ورأيت الخلائق الواردة ظعونا متلاحقة قادمة من ديارنا التي ذهبت من بين ايدينا هاربة من القتل ومن ذل اشد من القتل » والراوي كالمؤلف لم يشهد سقوط القنطرة انما شاهد اثارها فقط « بالخلائق الواردة ظعونا متلاحقة قادمة من ديارنا التي ذهبت من بين ايدينا هاربة من القتل ومن ذل اشد من القتل »وفي هذه الموقعة ، موقعة القنطرة يستشهد امير المضرية المهلهل بن سلام فارس مدينة القنطرة ويتساءل الراوي بما يشبه البكاء « كيف قضى المهلهل فارس مدينة القنطرة الذي لا يشق له غبار كيف خرجنا من القنطرة وعلمي بها انها امنع من عقاب الجو قلعة بين مضائق لا تسلك وحماتها فرسان مضر والكتائب العديدة من زنجالة » .

وفي هذه اللحظة بالذات ، لحظة الهزيمة المرة ، بعد محاولة اقامة كل الدروع الواقية التي لم تفد بشيء يهب المؤلف مذعورا من حلمه وقد مس الهزيمة مسا مباشرا وانبعث بذلك العصاب من مرقده الخفي وراءالدروع بعد ان تهاوت جميعها ، فيكاد المؤلف ينوح وهو يصرخ « كيف قضى سيدي كيف قضى ابو بكر بن مرداد وقد عهدته بطلا لا تصمد الكتيبة لحملته ومحمد بن رباح وهو من هو سطوة على الاسبان حتى سموه شيطان العرب مما اوقع فيهم واغار على ثغورهم والمهلهل بن سلام كيف قضى المهلهل «فارس مدينة القنطرة » هذا النواح الظاهر يقابل تماما النواح الذي يصاحب مريض عصاب الصدمة ،وقد هب من نومه مذعورا بعد ان كرر في حلمه الحادثة التي سببت له العصاب الملعون . فالحلم عند المريض التقليدي بالعصاب وعند المؤلف ينتهي نهاية واحدة ، بالفزع والنواح وبفشل استعادة السيطرة لدرء الصدمة .

ينتهي الحلم العصابي في هذه القصة بعد هذا النواح مباشرة. والذعر والنواحعادة في آلية حلم عصاب الصدمة هما الايذان للمريض بأن يكف عن حلمه ويطفو نحو الشعور واليقظة . فيهب من نومه مذعورا وهو يرتجف والعرق يتصبب من جبينه وقلبه يخفق خفقانا شديدا ، ويجلس في الفراش مستعيدا وعيه شيئا وراء شيء محاولا ايجاد تبرير للصدمة التي حدثت وهو في يقظته بعد انعجز عن الشفاء وهو في نومه . فهو لا ينفك « ثابتا » . في نقطة الصدمة غير متزحزح عنها الى ان يتم الشفاء او الزوال . فهو في حلمه يحاول استعادة السيطرة ، اما في يقظته فيحاول ايجاد المبررات التي توحي اليه بانه غير مسؤول عن اصابته بالمرض .وعلى هذا يتابع المؤلف قصته محاولا حشد اكبر كمية ممكنة من البراهين لتبرير حادثة الصدمة .. وبالتالي للتخفيف من مضاعفات عصابها المرضي .

ان صريع هذا العصاب ، يحاول دوما مع اتهامه الصارخ للظروف ان يضع اللوم على نفسه بشكل خفي ، وما تبريره للاحداث والظروف ، وهو في يقظته ، الا اعترافا ضمنيا بانه يتحمل جانبا كبيرا من المسؤولية التي خلقت وهيئت جو العصاب . يصدق ذلك على الحالات الفردية وعلى الحالات العامة ، والمشكلة التي نحن في

صددهـا هي حالة عامة سببت العصاب للعشرات والمئات من الواعين المدركين . وكل واحـد من هؤلاء يدرك في قرارة نفسه ، بانه مسؤول مسؤولية مباشرة عن الهزيمة وعن عصابها المرضي ، وهـو لا يقدر ان ينتكـر بان العصاب الذي اصابه قـد ساهم هـو شخصيـا في ايجاده .. ولاجل ان يهرب من هذه الحقيقـة يقذف المبررات واحدا اثر اخـر في محاولة يائسة للتنصل من الهزيمة وابعاد المسؤوليـة عـن نفسهفي تعرضهـا للعصاب .

ان الجو العام الذي يسبق الهزيمة والذي صور بايجاز شديد، والدروع الواقيـة التي نصبت ، والمزيفـة التي دمرت ، والمعركـة والانتصار الساحق ، ونشوة الشعـر والفخار .. ومن ثم الهزيمـة الساحقـة وسقوط القنطرة وتشرد اهلها وموت امير المضرية والنواح الـذي جرته الهزيمة .. كل ذلك يكشفه المؤلف في عدة صفحات مـن اصل ثلاثيـن . امـا معظم الصفحات فيملؤها بالمبررات التي سببت الهزيمة . وهي مبررات تبرىء المؤلف والراوي والمهلهل ابن سلام معا. الا ان التبرئـة نفسها من خلال سياقها تحمل الادانة لهؤلاء جميعا ، باعتبارهم مسؤوليـن او مشاركين في المسؤولية التي قادت الـى الانكسار والعصاب .

تتلخص هذه المبررات بما يلي :

١ ـ ان المضرية لم يهزمـوا انمـا خدعـوا « واذا برسول من الامير ـ ابن ساعر ـ يدخل الفسطاط يحمل منه دعوة الى ابـن مرداد الـى الجلاء عن السهل واللحوق بهضاب رندة لان العـدو اصبح في القنطرة او كـاد فهممنـا والله بالفتك بالزنجالي حامل الرسالة لاننا حسبناه خديعـة دست الينا من قبل توذر . يريدونكم علـى ان تخلـوا السهل لتتدفق فيه عساكر الاسبان فتؤخذ مدينتكم ومن ورائها ارض الجزيـرة لقمـة سائغـة » .

٢ ـ ان المهلهل قد خاض معركة يائسة بعد ان كشف الخديعة وانه قذف بنفسه في اعماق المعركـة بغايـة الانتحار فيهتف « ليس فيالحياة خيـر بعـد ان ياخذ القنطرة هؤلاء العلوج » ويسقط صريعـا بعـد سقوط القنطـرة .

٣ ـ هنالك فئة من الاندلسيين قد انضمت الى الاسبان وحاربت الى جانبهم وهذه ظاهرة معروفة في التاريخ الاندلسي « فـلا بد مـن انه كـان خديعـة وان نقع في الكميـن الذي دبره ابن ساعـر باشارة توذر او توذر باشارة ابـن ساعر . لا والله ما تخاذلنـا ولا ذعرنا ولا اعطينـا بايدينـا ولكنهم اثخنونا بنبل حديد قبل ان نتناولهم بالحراب والسيوف ولقـد رأيت بيـن مـن قاتلونـا عمائم صفرا كثيرة لاهل زنجالة الجبل لـم تنفـع في اخفائهـا قلانس من معدن صلب مريشة كانـوا يعتمرون بهـا مثل قوم توذر فقتلوا منـا وقتلنـا منهـم خلقا كثيرا ، وسمعته يصيح اذن فعلتموها بعتم البلد لتوذر » .

٤ ـ كان هناك اتفاق مبطـن بيـن ابن ساعر وتوذر « صالحهمعلى ان يبقى اميـرا ويطمع سيدك ان يظل اميرا ابشره بالبوار والفقروالقتل وابشر ابن ساعـر بأن ملكه قصير العمر يحسب انه باجلائه المضرية عن بلادها تصلح لـه ولزنجالة الارض فيملكونهـا حين عجز عـن حفظهـا مفاوير العرب ان هو الا مطيـة ذليلة استعملهـا الاسبان . وتوقعنـا ان يطبق علينـا ابن عمرون وجنده من جانب ويطبق علينـا الاشبان من الجانب الاخـر فـلا يخرج منا حي » .

٥ ـ هنالك فئة شبه غريبة هادنت الاسبـان « مستعينين بوهـن النفوس عن الجلاد والجهاد وبخيانات الدخلاء وكل من لـه اس في العربيـة او في الديـن » .

٦ ـ ان الهزيمة كانت نتيجـة منطقية للخلاف الذي دب بيـن افـراد الامـة الواحدة « وانظر ابن ساعـر الذي وليتموه امركم بعـد طول فرقـة وشحناء بينكم ما هـو الا صنيعـة لنـا دسسناه عليكـم منذ زمـن بعيد ليوم مثل هـذا اليـوم » .

٧ ـ المنهزمون يدعـون بان هزيمتهم هي النصر « وانه ليفخـر بحياده ـ ابن عمرون ـ وبفعال سيده ويقول ان ابن ساعـر انقذ جيش المسلميـن من ان يحاط به حيـن تسلل العدو الى المدينة فاستنفذه من الخطر ليوم عظيم يوم الكرة . زور وبهتان كمـا ترى ولكن مـن يعـي كذب مـا يأتي به غيري وغيرك يا ابا وائل » .

٨ ـ ضمور الوعي عند الامة وخمولها الفكري ورخاوتها ولا مبالاتها « انـك لا تدري ما بالقوم من عمى كـان الله ختم على قلوبهم وعلـى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة فهم لا يعقلـون » .

ليس هذا حلما خاصا بالمؤلف .. انما هو حلم يراه جلّ الافراد الذيـن يرتضـون عـن مهازل الحياة اليومية وعن الانحطاط الذي وصلت اليه هذه الحياة ، وهم من حين الى آخر ، عندمـا يتصورون هول الهزيمة ووقع صدمتهـا على نفوسهم ، يهبـون مذعورين ليس منونومهم، انما من سباتهم الوجداني .. وينوحون في اعمـاق انفسهم .. وهـم في الطريق مشاة ، وفي بيوتهم جالسين ، انمـا المؤلف يعلو على هؤلاء جميعا لانه أوتي مقدرة التعبير عن هذا الحلم ، ومقـدرة تجسيـده ونشره لكي ينتصب مرآة امـام القلة المختارة التي اغتالت الهزيمـة اعصابها . والتي لم تزل تعيش باعصاب ملتهبة كالحمى .. لكي يذكر ما بالهزيمة كلمـا حاولت نسيانهـا او حاولت الفرار من وافعها المرير. ومن جهة اخرى يسوق امامها حشدا من المبررات لكي تشعر بالارتيـاح من حين الى اخـر فـي محاولة للتنصل من المسؤولية ومن مضاعفـاتهـا المرضيـة .

وعندما يعي المؤلف من حلمه وينهي قراءة المخطوطة ، ويفتح عينيه في ضـوء النهـار يتساءل « ما الذي فعله النعمـان ابو وائل بعـد ذلك ؟ هل خطب يوم الجمعـة فافرغ ما في جعبته ونفسه . ام توانى فلم يفعل ؟ هل عاوده المرض فمات ، ام حيل بالقسر بينه وبين مـا كـان ينوي ؟ لسنـا على ثقة مـن شيء من هذا ، وكل الذي نعرفـه ان طيبة التي يذكرهـا مدوّن المخطوطة في مـا دوّن قد ضاعت كمـا ضاعت القنطرة قبلها ، وكمـا ضاعت قبل غرناطـة وقليقلة وقرطبـة واشبيلية . ايـن تقع طيبة هذه ؟ ذلك لا يهمنـا في شيء فقد يكـون هناك في الاندلس ، مدن كثيرة باسم طيبة مثلمـا فيهـا مدن كثيـرة باسم القنطرة ، وكلهـا ضاعت . نحـن نعرف ان كل الاندلس ، من ايدي العرب ، قد ضاعت » .

ترى هل يتكرر هذا الضياع ..كمـا يتكرر الحلم المفزع في آليـة عصاب الصدمة وهل يخضع هذا الضياع لآليـة هذا العصاب ؟!

يفتخـر العجيلي بأن ابطاله دومـا منتصرون ، اقوياء ، اثريـاء، مناضلين ، يتناولون عشيقاتهم بدون ان يكابدوا الهجر ، يتفوقون على خصومهم بدون التعرض الى الصراع ، وهم عندمـا يموتون .. فانهـم يموتون ابطـالا ممتلئين مشبعين من الحياة . وكنت اعجب لذلك ،كيف ينتصر الابطال في عالم الهزيمـة ؟!

وفي هذه القصـة لا يتمكـن العجيلي من دفع بطله ابووائـــل

بقعة في ذاكرة غير مضاءة

من يصمد ما بين البغض ،
وبين العشق الجارح يهلك فيه اثنين ،
وهذا الزمن الفظ ، تشرّخ فيه الوجه .
وصارت فيه العين ،
مصباحا للسهر الضائع ،
كان النهر ،
يؤالف بين الرمل وبين الصبية ،
يترك في رأسي ..
أغطية ..
وهوى ..
وبضائع للموتى ..
كان البرد ،
يحمل امطارا موحشة ،
يجلس بين العظم وبين الجلد ..

●

للصبية ايام مثل الفضه ،
وعصافير بلون السقف ،
وخوف ابيض قبل العيد ،
كني أهيىء ..
للشيخوخه : جسدا مائيا ،
للبرد الشاحب : وجها ،
« .. لابي رائحة الفرسان المهمومين ،
وله حزام اخضر ،
وفم رطب ... »

●

ان الصحراء مجرّحة ،
حين رأيت الريح ،
ترش عليها الصخر ..
الفتية ..
كنت الطفل القاتم ، يعلق جرح ،
في ذاكرتي ...
« وله نعش اخضر ،
واسم ينضح ماء ،
ولديّ مخاوف منتفضه ،
منها ما يذهب للنوم ،
ومنها ما يمكث في اليقظه .. »

●

لم يفجأني الزمن الجارح ،
لثعابين البر مخابىء تحت الماء ،
ولها الصخر الساهر فوق الوجه ،
الصخر الساهر تحت القلب ،
« .. كان الماء ،
يشحب في ذاكرة الصيادين ،
يؤالف بين السمك الميت والصحراء .. »

بغـداد **علي جعفر العلاق**

النعمـان الى النصر . لانه يعيش جو الهزيمة ، وكل مـا حوله ينبىء بها . فكيف يمكنه ان يتخلص من التناقض الصارخ اذ هـو رسم بطلـه الاثير في « فارس مدينة القنطرة » كمـا يرسم سائر ابطاله . ربمـا لاول مرة يدرك كاتبنـا ما هـو معنى الهزيمة.. ومع ذلك ظلت فيوجدانه بقية مـن اصراره القديم فلم يتخلّ عـن بطله ويدعه يسقط شهيـدا في ساحـة القتال . انمـا ترك امره غامضا يتردد بين عدة امكانات . كدليل على واقعنـا المجهول ومستقبلنـا الضبابي المقذوف والمطاح بيـن عشرات من الامتحانات قد اختلطت ببعضها حتى لكأنهـا غدت كـرة لزجـة من ضربة باليـة .

لقـد وقعت في الوهم كمـا وقع غيري ، وصدقت للوهلـة الاولى بان القصـة هي حقـا مخطوطـة اندلسية ، وعانيت الكثير لكي اعرف مصدر ابيـات الشعـر . . انها ليست من الجو الاندلسي علـى الاطلاق . فيهـا جذالة وفحولة الا ان اصطناعا ما يتبدى من خلالها .. وليس مـن شك في انهـا من نظم المؤلف نفسه ان الذي اجـرى هذه القصـة باعتبارهـا مخطوطة قديمة ليس من الصعب عليه ـ وهـو شاعـر لـه ديوان ـ ان ياتي ببضعـة ابيات يقلد فيهـا الاسلـوب الشعري القديم ، كمـا قلـد الاسلوب النثري القديم .

ان القصـة في الاصل ، عالم قائم بذاته ، لا علاقـة لـه بالواقع، حتى ولو كانت القصـة واقعيـة حتى الالتحام والارتطام . فهي شحنـة نفسيـة مكثفـة لا بد لهـا عندمـا تحز وتنضج في اعماق الذات من ان تجسد في الخارج ، وعلى هذا فالعالم القصصي هو غيـر العالـم الواقعي . ان القاص يعيش دومـا في عالميـن ، ربمـا يتقاربـان ـ في بعض الاحيان ـ حتى المساس ، الا انهمـا يبقيـان كالخطين المتوازييـن مهمـا امتدا لا يتلاقيـان .. ان القاص ينتقل من عالم الى اخـر .. بدون ان يعيشهما معا ، عالم القصة باحداثه وابطاله ، وعـالم حياته اليوميـة التافهة او العظيمة .. وهو لا يملك سوى هذيـن العالمين . سواء كان قاصا واقعيا حادا او رومانسيا حالما او فنانا مؤرخا .

الا ان العجيلي ، كأديب موهوب تعـود ان يخرق العادي والمألوف ... قـد اوجـد بقصته هذه ثلاثـة عوالم بآن واحد عالم الانهيـار الاندلسي بمـا يقارب الحقائق التاريخية ، وعالم الهزيمة على الجبهات .. ثم عالمه الذاتي الخاص النامـي من خلال واقعه اليومي .

ان نجاح المؤلف في تصوير البيئة الاندلسية المنهارة من خـلال التصاق تصوره بالارض الاندلسيـة المحبوبة حتى الوعي الجارف .. جعله يصدق ما خطت يـداه ووجد نفسه ذائبـا في الجو الاندلسـي الشجي والاسبان فقـد سمعت بانه عندمـا القى قصته هذه لاول مرة، وكانت طازجـة قريبة العهـد بوجدانه وتصوره حمل معه خارطـة كبيرة لاسبانيا .. حتى اذا اعتلى المنصة فردها امامه واخذ يمرر سبابته عليها، مشيرا لمستمعيه الى المكان الذي تقع فيه هذه المدينة ..مدينةالقنطرة.

انور قصيباتي